واحد لنصرتها... العجوز تكبّر وتحوقل متصورة أنه الأذان. الشاب قرّر أن لا يقمع الطفل هذه المرة، فيتجاهله...

الطفل يبتسم ويستقر في قعر الأريكة المتداعية، يضع رجليه على المنضدة ويحملق في الشاشة وحواسه يقظة... ثم لا يلبث أن يهبت ذلك الألقُ في عينيه.

انتهى شريط الرسوم المتحركة وهذا موعد الأنباء. ينزلق من الأريكة مجرجراً ساقيه... يبلعه الفضاء الخارجي... يتلفت، يعزيه مرأى القط وهو مرمي كجورب قديم فيهب نحوه، يجرّ ذيله. لكنّ القط لا يبدي اهتماماً كبيراً، يفتح عينيه في نصب... فيؤذيه الضوء فيعود إلى نومه كأنما ذيله لقطٌ آخر.

الشابة بعد تقليم أظافرها تلتفت في اهتمام بارد إلى الأنباء وهي تترنم بأغنية نزقة...

«وأعرب السيد... عن كبير افتنانِهِ بالحفاوة التي لقيها من السيد...»

«وبحبك أنت
أتاري أنت
ما فهمتش أنت»

«وعلق مبعوث صحفي أن الأوضاع استقرت طيلة الليلة الماضية... لكنّ محدثاً أضاف أن الأحياء الجنوبية رُوِّعتْ بقصفٍ مدفعي مكثف عند الفجر».

والفتاة تترنم:

«... ولما أقلك كمان بحبك
يقلي قبك
خليني جنبك...»

«وأكد ملاحظون أن نسبة الحوادث قد قلّتْ بصفة واضحة في مدينة «ك» والسبب عائد إلى الإعراض الواضح عن استعمال السيارات واستبدالها بحمر الوحش...»

يضحك الشاب ويضرب بقبضته على الرقعة فيتطاير الجنود والملوك وتسقط القلاع والحصون، ويرفع قارورة الماء عالياً ويقلبها في جوفه مرة واحدة.

الشابة ترمقه بعين فارغة ثم تقول: «هذه الألعاب لا تليق برجل له ربع دماغ... أراهن أن رأسَكَ ملآن بأعقاب السجائر وقشور عبّاد الشمس».

الشاب يسرح شعره بأصابعه وهو يقزقز لُبّاً. يقترب من الفتاة السمراء يقذف في وجهها بقشور وبصاق ملوث بالسجائر، فترد عليه بمبرد أظافرها، لكنها تخطئه، فيقهقه ساخراً ويهرع إلى باب الحجرة فاراً... العجوز في أروادها تفتح عينين غائمتين، والوقت مغرب، تسأل عن صلاة العصر، والمنزل كله يغرق في الصمت.

سبتمبر ١٩٩٣

القصرين ـ تونس

الغيلـم

الناصر التّومي(*)

تسلم اللفافةَ من التاجر. التفت يمنةً ويسرةً وجلاً، وسرعان ما تفطن إلى أنه منذ لحظة قد أزاح عن كاهله كابوس الخوف، ولام نفسه على هذه العاهة المتشبّثة به رغم ما فعل للخلاص منها.

غادر نهجَ سيدي محرز، وبيطحاء باب سويقة توقّفَ هنيهةً مفكراً؛ أيّ الطريقين يختار إلى وسط المدينة: مباشرة، أم حيث مسرح حياته والبدء من النهاية؟ هَدَتْه اللفافة إلى الاختيار الحسن، جاعلاً هدفه شارع «تسع أفريل». سنوات عديدة توقف فيها الزمن، كابتاً طموحه،... هياكل واهية، نفوس منكسرة، رؤى غير واضحة ولا ثابتة.

كان إحساسك يلح عليك بأن هناك من يراقبك على الدوام، يتقصى حركاتك وتنقلاتِك، ويحصي عليك ألفاظك وأنفاسك ويتنصّت إلى أحلامك. لذلك تعلمتَ الصمت تجنباً للمفاجأة. تحرّش بك بعضُهم دون مبرز، كنتَ على يقين أن أيدي خفيّة تحرك كل شيء داخل ذلك المعتقل، لتزيل ما تبقى لك من كرامة وعزةِ نفس. ورغماً عنك أبديتَ طاعة عمياء.

وراء القضبان تعلّمَ الكثير مما لم يتعلّمه خارجها.

نقل اللفافة من يمناه إلى يسراه وألقى نظرة إلى ما حوله، ثم لَعَنَ نفسه التي آنست الرهبة.

قادته رجلاه إلى شارع باب بنات. توقف برهة أمام المدخل الرئيسي، وبوابتِه الحديدية العالية. قبل أن يحتويه هذا المكان كان يجد فيه العزاء، ولا يصدق الأساطيرَ التي تحاك حوله، وبدا له أن مَيلاً قد طرأ على ميزان العدالة المعلق بأعلاه.

مرّ أمام مدارج الضبّاط. توقّف هنيهة، أحس بالحنين إلى زيارة القبو الذي كان يلتقي فيه بالرفاق. لم يكن يعرف كيف تم اختيارُ هذا المكان ليكون مقراً لَهمْ: ألكونه شهد منذ ثلاثين سنة تناحر الإخوة الأعداء، أم لقربه من ساحة الحكومة؟ لقد التحق مؤخراً بالجماعة فغابت عنه الحقيقة.

عُرفتَ بترددك على الدوام قبل الإقدام على أمر ما، لكنّك لا تخون العهد. ولما فاتحوك بالانضمام إليهم كانوا على يقين بأنك إن لم تقبل النضال فلن تشي بهم. وتطلّبَ انتظارُك الأسابيعَ للحصول على موافقتك.

(*) مولود في ٢٢ جانفي ١٩٤٩، يشتغل مُوظّفاً عمومياً. أصدر: **كلّ شيء يشهق** (مجموعة قصصية) صدرت عن منشورات الأخلاّء، في تونس عام ١٩٨٢؛ **وليالي القمر والرماد** صدرت عن منشورات الأخلاّء عام ١٩٨٦. وله أعمال أخرى مخطوطة...

انزلقت اللفافة من إبطه، وكادت تسقط لو لم يسرع بالإمساك بها.

أمام ساحة الحكومة أحس بالغربة. كان يعتريه الإحساس نفسُه كلما قادته رجلاه إلى ذلك المكان. ولم يجد تفسيراً لحالته هذه، ما عدا مجموعة من التبريرات غير المقنعة. ولا ينجلي عنه هذا الإحساس الغريب إلا وهو يترك الساحة وراءَه ليسلك طريقه أمام جامع حمودة باشا فجامع الزيتونة حيث يشعر بالاطمئنان والسكينة ويتنفّس ملء رئتيه. وكأنّما كان تحت ضغط كابوس مزعج ولا يجد تفسيراً لهذه الحالة أيضاً.

وضع اللفافة تحت إبطه وضغط عليها وتوقف بمفترق «البياسا» محتاراً متردداً: أيعود إلى المنزل أم يواصل سياحته؟

غادر البيت دون إعلام زوجته بوجهته وهدفه، رغم أنها لا تفتأ كل مرة تعاتبه على هذه العادة السيئة التي تزيد في اضطرابها. ففي مثل هذهِ الغيابات المفاجئة عن البيت كان غالباً لا يعود إلا بعد أشهر أو سنوات، تقضيها الزوجة بين شماتة البعض وعجز البعض الآخر عن فعل أي شيء من أجله. لقد آمنت أن الأنباء السيئة هي قدرها، وانتظارُ عودة الزوج الغائب.

عند زيارتها له يرى في عينيها مآسي آلاف الزوجات والأمهات والأبناء، وهو يتذكّر قولَ أحد النزلاء «لو فكر كل واحد بأن يفرح أهله فقط، فلن يستقيم حال الجميع».

بعد أن تاه في بيداء المدينة، واستبدت به الحيرةُ، لازم المنزل أياماً لا يبرحه، يقف عند عتبة الإقدام. تبرّمت زوجتُه من وضعه وأضجرتها حالته، وعبثاً حاولت الاقترابَ منه ومعرفة دواعي انطوائه وصمته وبقائهِ الساعاتِ الطوالَ مطرقاً حيناً وناظراً حيناً آخر إلى نقطة وهمية لا تتعانق فيها جفونه. ومَا كان ليغير من وضعه إلا باقتراب ابنه منه والارتماء في أحضانه، فيصاغره ويراقصه ويداعبه، ملوّحاً به إلى أعلى. وقد اغتنمت الزوجة مرة هذه اللحظة السعيدة فاقتربت منه قائلة مفتعلة العفوية:

ـ ماذا لو خرجت في نزهة لتروّح عن الصبي؟

ـ أعرف أنك لا تقصدين نزهة الصبيّ، بل لأفرّج عن نفسي. صدّقيني لا أجد راحتي إلاّ في هذه العزلة.

ـ إلى متى؟ من يوم خروجك، وأنت على هذا الحال.

ـ وقفة تأمل لا غير، ولن تدوم طويلاً.

وانسحبت من أمامه وهي لا تعرف كيف تتصرّف بعد أن أعيتها كل الحيل لإخراجه من هذا الانطواء المخيف، وترتبك أوصالُه عند كل طرْقٍ غير مألوف على الباب الخارجي.

أخذ اللفافة بكلتا يديه، نظر إليها ملياً. أحسّ بطمأنينة لم يألفها من قبل.

كان إحساسك بالريبة في كل ساكن ومتحرك قد جعل منك كائناً مضطرباً متردداً على الدوام. الاتجاهات خاطئة والمعلومات مغلوطة، تعبتَ من نفس هدَّتْها الهواجسُ والمخاوف، لا شيء يوحي إليه بالطمأنينة. لا الانتماء أنصفك، ولا الصراحة والنزاهة كانتا لك شفيعاً، ولا أنت بقادر على التملّق والتمسكن.

وجد نفسه فجأة وسط الشارع الرئيسي، لا يعرف كيف تم ذلك، ولم يحاول أن يغيّر من مساره. سلك طريقه وسط الأشجار يلقي حيناً نظرة إلى المقاهي والحانات على الجانبين، ويتوقف لحظة في تأمل وتفكّر. نفر من الحانات منذ عشر سنوات واختار وجهة مضادة، تاركاً بعضَ الرفاق والأصدقاء يتندّرون به. بعضهم سُجنوا والبعض حرموا من السفر. ما أضجره منهم أنّ محاوراتهم صارت لها مفاهيم عديدة، وانعكست هذه الظاهرةُ على عيونهم: فهي زائغة فزعة لا استقرار لها. أما كتاباتهُم فباتت تنسف المبادئ وتغير الحقائق، ولذلك تحاشاهم.

ضم اللفافة إليه ثم أعادها إلى إبطه.

وصلت به الخطوات إلى حيث احتُفظَ به أشهراً دون أن يَعلم أحدٌ من أهله بمكانه. أرهاط مختلفةٌ يتداولون عليه مهددين زاعقين صافعين متهكمين، حتى إذا ما أعياهم أمره أسلموه إلى زبانية لا يحسنون إلا الجَلْد، ويُغْمى عليه عديد المرات، وكلما استيقظ جُلِدَ من جديد ولا يسمعون منه كلاماً، فدورهم التعذيبُ لا غير.

توقف بساحة إفريقيا ودار حول نفسه وعاد أدراجه معرّجاً إلى شارع قرطاج، وتوقف عند بدايته.

كان يوماً مشهوداً، قذفت فيه الشوارعُ والأنهجُ حشوداً هائلة من الطلبة والتلاميذ، يتسارعون في ثورة عارمة منددين ببعض الممارسات ويتدافعون في فزع تتبعهم الهراوات.

يومها كنتَ تتبع المتظاهرين من الخلف ودقات قلبك تتسارع، تكاد تكشف عن هلعك، لا تعرف كيف تتماسك ولا تجد طاقة للهتاف. شيءٍ ما يجذبك إلى الخلف، يشلّ تفكيرك، يكبت فيك الصمت ويعطّل اندفاعك. عيناك فقط تبحثان عن المنافذ المؤدّية إلى النجاة.

لما عاد إلى المنزل كان طلق المحيا، واتّسعت تحرّكاته بالتلقائية وَهَشَّ في وجهيْ زوجته وابنه ليبثهما الاطمئنان.

لاحظت زوجته اللفافة الموضوعة على السفرة. فَهِمَ رغبتَها الجامحة لمعرفة ما تحتويه. أخذ اللفافة وفتحها برفق قائلاً:

ـ هذا كفني سيكون دوماً على كتفي. وسأقول كلمتي حيث ومتى شئت، ولا أبالي بما سيقع بعدها، فهذا الكفن سيُخرس كل أبواقِ الخوف..

وانسكبتْ من عيني الزوجة دموعٌ كالجمر.